الحفر وراء الجذور المشتركة بين الإسلام والمسيحيَّة

أ.د. طه جابر العلواني

كرسي العلواني_ فيرجينيا_ مارس ٢٠١٠

إنّ بين "الإسلام" و"النصرانيَّة" من العلاقات والوشائج الشيء الكثير، مما لو أعطى من الاهتمام ما يستحقه لقامت بين حملة الدينين أوثق العلائق، ولتهاوت أمامها سائر دعوات الفرقة والتناحر بين العالمين الإسلاميّ والنصرانيّ. وفي هذه الدراسة الوجيزة سنقدم أمثلة يسيرة على متانة تلك العلاقات التي غطّت عليها أفكار دخيلة، ومطامع سياسيَّة وتحريضات من أصحاب مصالح في هذا التناقض والصراع، الذي يسود العلاقات بين العالمين الإسلاميّ والنصرانيّ منذ فترة طويلة، مما أعطى فرصة لبقاء رقعة "الوثنية والبدائيّة" واسعة على وجه الأرض ولا شك أنّه لو تضافرت جهود العالمين لتحرير البشريَّة من "الوثنية والبدائيَّة" وتخليص الإنسانيّة من هذا العار، والارتقاء بالإنسان الوثنيّ والبدائيّ إلى مستوى إنسانيّ بقطع النظر عن الدين الذي سوف يتديّن به بعد ذلك– فالبداية في جعله بحيث يستطيع أن يعي ذاته ويدرك أنّه آدميّ خلق على صورة أبيه آدم ليكون خليفة في هذه الأرض، مؤتمنًا عليها، مسئولاً عن إحيائها وإعمارها، وجعلها بيتًا واحدًا آمنًا مطمئنًا للأسرة البشريَّة –كلّها– لا شك أنّ ذلك ممكن لو تضافرت جهود العالمين الإسلاميّ والنصرانيّ على ذلك، ولا شك أن هذا العار –عار بقاء ما يقرب من ثلث البشريّة وثنيّين وبدائيّين يفتك بهم الثلاثيّ البغيض: (الجهل والفقر والمرض) ينافي مبدأ "الخلاص" الذي هو أمر محوريّ لدى العالمين، وإن اختلفت حقيقته ووسائله عند كل منهما إنّ هذا العار يقع على عاتق العالمين قبل أيّ أحد آخر، وعلى رجال الدينين خاصّة.

إنّ اقتلاع هذا العار، وضم العالمين الإسلاميّ والنصرانيّ جهودهما –معًا– لإنقاذ ذلك "العالم الثالث" لا بالمعنى الاقتصاديّ الشائع حاليًا للعالم الثالث، بل بالمعنى الحضاريّ الشامل قد يعدّه البعض من قبيل الأحلام لكن كثيرًا من الإنجازات البشريَّة الكبرى الهامَّة بدأت أحلامًا، وربما بدأت بتخيُّلات لكنها صارت حقائق بعد حين، ونحن لا نستطيع أن نلغي الأحلام أو نتجاوزها لأنّ لها وجودًا في جوانب عديدة من حياتنا.

هذا الحلم يحتاج منّا –جميعًا– إلى مراجعة مبدأ "الخلاص" وإخراجه من دائرة "الخلاص الفرديّ" إلى "الخلاص الإنسانيّ الشامل" لتحقيق "الخلاص الفرديّ" في الدار الآخرة.

ثم تحديد "أولويّات الخلاص" ورصد الأزمات والمشكلات التي هي موضع اهتمام "الإسلام والنصرانيّة" معًا، ثم التحاور بين المؤسَّسات المختصة في العالمين، للخروج بإطار مؤسّسيّ يضم هيئات وقيادات تمثّل العالمين الإسلاميّ والنصرانيّ، ثم جمع المعلومات عن أهم الأزمات وعقد لقاءات مشتركة لوضع سلَّم أولويّات لمعالجة هذه الأزمات وتوزيع الأدوار المشتركة بين الفريقين للوصول إلى الحلول والمعالجات اللازمة لها.

إنَّ مجموعة الأزمات الكبرى عالميَّة، وهي في حاجة إلى تكاتف عالميّ يبدأ بتنسيق إسلاميّ نصرانيّ يعقبه تضافر إنسانيّ يجمع جهود الإنسانيَّة المتحضّرة –كلّها– لمعالجة تلك الأزمات، وتقديم الحلول اللازمة للخروج منها، وفي مقدّمة تلك الأزمات:

١. أزمة اغتراب الإنسان ذات الشُعب المتعدّدة الشاملة لإنسان العالم المتقدّم وإنسان العوالم المتخلّفة، فللتقدُّم أزماته وللتخلُّف أزماته، وكلّها تهدّد إنسانًا يحرص الدينان الإسلاميّ والنصرانيّ على حمايته وخلاصه في الدنيا والآخرة.

٢. أزمة البيئة والمخاطر التي تهدّدها في البر والبحر والجو، وهي أزمة لا تستطيع الكيانات السياسيّة ولا المنظّمات الدوليَّة والحدود الإقليميَّة إيقاف مخاطرها على الأحياء والحياة، وهي بحاجة إلى جهود عالميَّة، تبدأ بتكاتف العالمين الإسلاميّ والنصرانيّ للحد منها ودرء مخاطره عن الحياة والأحياء.

٣. أزمة سباق التسلّح بأسلحة الدمار الشامل على حساب توفير موارد الأرض لمقاومة الجوع والجهل والمرض. فعلى مستوى التسلّح نستطيع القول إنّ ما تمتلكه بعض الدول المختلفة من كبرى وغيرها من أسلحة دمار شامل وأسلحة أخرى صار كافيًا لتدمير الحياة والأحياء مرّاتٍ عديدة، ولم تبذل محاولات جادّة لإيقاف هذا الجنون، وفي كل يوم تتطوّر الأسلحة الفتاكة وتتزايد مصانعها، وتزدهر صناعتها، وكلّما استفحلت الأزمات الاقتصاديّة تزدهر صناعات الأسلحة والحروب الصغيرة والكبيرة.

٤. أزمات الجوع والفقر والجهل والمرض التي لم تأخذ حظّها المناسب من الاهتمام العالميّ؛ فاستفحلت وتضاعفت وبالرغم من القدرات البشريَّة المبدّدة في صناعات أخرى، بعضها ضار بالبشريَّة، مهدِّد لحياتها فإنّ نسب التصحُّر والتلوّث والتدمير صارت تهدّد بنقص كبير في قدرات الأرض على بلوغ حد الكفاية للحاجات الإنسانيَّة الضروريَّة كافية لكل من يخلق على ظهرها، ولكن سوء استعمال الإنسان لها وتفريطه بحمايتها قد أدّى إلى بروز هذا النوع من التهديد والأزمة.

٥. فيما يتعلق بالدراسات المتعمقة لا بد من العناية المشتركة بالبحوث والدراسات المتعلقة بالكتب الثلاثة؛ التوراة والإنجيل ثم القرآن والمقارنة في مجالات القيم لإبراز ما هو متفق عليه بين الكتب الثلاثة فيما يتعلق بمقاصد «**التوحيد والتزكية والعمران**» لتصبح هذه المقاصد الثلاثة من وسائل كشف المشتركات بين الدنين والعالمين إضافة إلى قيم «**العدل والحريّة والمساواة وحقوق الإنسان**» وسائر القيم المشتركة.

٦. فيما يتعلق بالأمور التاريخيّة التي كثيرًا ما تشكّل عناصر ضغط وتأثير سلبيّ على الذاكرة المعاصرة كالحروب التي سمّيتها «**المصادر العربيّة الإسلاميّة**» «**بحروب الفرنجة**» وسمّتها المصادر التاريخيّة الأوربيّة «**بالحروب الصليبيّة**» لإضفاء المعنى الديني عليها. وكذلك ما حدث «**للموريسكيّين المسلمين**» من تحريق وتعذيب وتدمير لممتلكاتهم في الأندلس –أسبانيا– بأوامر منسوبة إلى الكنيسة أو البابا شخصيًّا . لا بد من إعادة دراسة هذه القضايا المشكلة... بحث مشتركة تخرج برؤية تعيد تفسير هذه القضايا تفسيرًا لا يسمح بجعل ذلك الماضي مسيطرًا ومعيقًا لتحركنا في الحاضر نحو التفاهم.

٧. إنّ القرآن المجيد قد نصّ في «**سورة المائدة**» على القرابة والتقارب واتساع نسبة المشتركات بين المسلمين والنصارى فقال: **﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا**

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:٨٢). إنّ هذه الآيات قد جعلت الذين تمسّكوا بالسيد المسيح على صعيد واحد مع المسلمين دون أي اختلاف.

واعتبر القرآن المحرض على قتل المسيح، وادعائهم بأنهم قتلوه وطعنهم في أمّه الصدّيقة سببًا في غضب الله تعالى عليهم: **﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾** (النساء:١٥٥-١٥٩).

والقرآن الكريم خصّص سورة كاملة هي «**سورة البروج**» لتسجيل واقعة «**أصحاب الأخدود**» وهو المؤمنون النصارى الذين اضطهدوا وأحرقوا وقتلوا بمذبحة جماعيّة.

وهناك «**سورة مريم**» التي خصّصت للدفاع عنها وبيان طهارتها ونقائها، وصدق السيد المسيح في كل ما جاء به، إضافة إلى ذكرها وولدها عيسى ابن مريم في سور قرآنيّة عديدة.

إنّنا في حاجة إلى تذكر كل هذه المشتركات وإحيائها لندخل -جميعًا- في السلم كافّة **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾** (البقرة:٢٠٨).

ونوجد عالمًا تحكمه القيم المشتركة ويسوده الأمن والسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته